مشروع كتاب
تاريخ عمرية البحرة (50 -13)هـ

د. عمر عبدالله بدران
Badran_Omaria@yahoo.com

على الرغم من ندرة المصادر التي تتحدث عن تاريخ البحرة، إلا أن ما ورد عنها في كتب التاريخ والبلدان والأدب يعطي صورة واضحة عن أهميتها في العصر الإسلامي المبكر. فقد كانت البحرة منطقة استراتيجية تقع على الطريق بين الحجاز والشام، وشهدت العديد من الأحداث المهمة التي أثرت في مسار التاريخ الإسلامي.

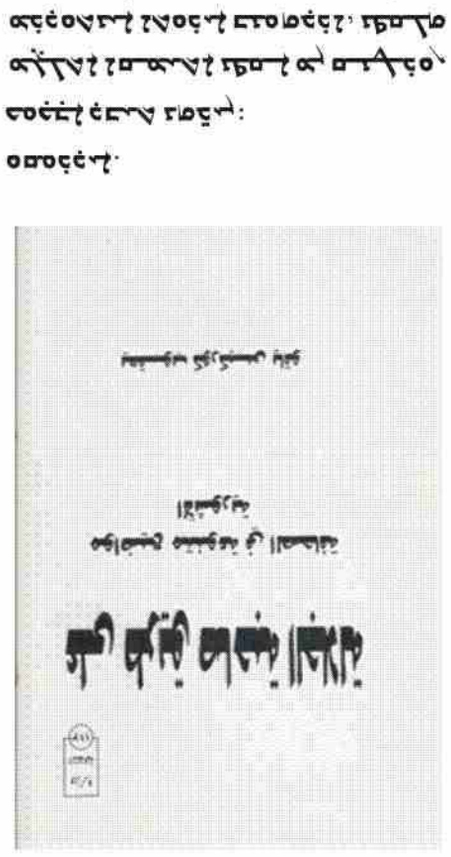

وقد اخترت هذا الموضوع لأسباب عدة، منها قلة الدراسات المتخصصة عن هذه المنطقة، وأهميتها في فهم بعض الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام. كما أن المصادر التي تناولت البحرة متفرقة، فكان لا بد من جمعها ودراستها وتحليلها للخروج بصورة متكاملة عنها.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالبحرة وموقعها الجغرافي، وبيان أهميتها الاقتصادية والعسكرية، وتتبع تاريخها منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الأول الهجري. كما تسعى إلى إبراز دور أهلها في الأحداث التي مرت بها، وتحليل أسباب تراجع أهميتها بعد ذلك.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، حيث قمت بجمع المادة العلمية من مظانها في كتب التاريخ والبلدان والأدب، ثم تحليلها ومقارنة الروايات المختلفة للوصول إلى أقرب صورة ممكنة للحقيقة التاريخية. وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، على النحو التالي:

التمهيد: الموقع والتسمية

الفصل الأول: البحرة في العصر الجاهلي

الفصل الثاني: البحرة في صدر الإسلام

الفصل الثالث: البحرة في العصر الأموي

الخاتمة: النتائج والتوصيات

التمهيد: الموقع والتسمية

تقع البحرة في الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على بعد حوالي 180 كم شرق مدينة يثرب (المدينة المنورة) و220 كم جنوب غرب مدينة الحيرة. وتحدها من الشرق صحراء النفود، ومن الغرب جبال السراة، ومن الشمال وادي الرمة، ومن الجنوب أراضي بني تميم. وتبلغ مساحتها التقريبية نحو 15 ألف كم مربع، وتتميز بتربتها الخصبة ووفرة مياهها الجوفية.

وقد اختلف في سبب تسميتها بالبحرة، فقيل إن ذلك لأن الماء يظهر فيها على شكل بحيرات صغيرة بعد نزول المطر، وقيل لأن الأرض منخفضة فيتجمع فيها الماء. وقد ورد ذكر هذه التسمية في كتب اللغة والبلدان، وهي تسمية مناسبة لطبيعة المكان. وتسمى أيضا بحرة الرجلاء نسبة إلى أحد ملوك الحيرة الذي كان يقطع إليها في الصيف.

وتشتهر البحرة بكثرة عيونها وآبارها العذبة، وبوجود أشجار النخيل والسمر والطلح فيها، مما جعلها محطة مهمة للقوافل التجارية والعسكرية على طريق الحج القديم. وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان فقال: "البحرة ماء لبني أسد بين فيد والقرعاء، وهي أرض ذات حجارة سود، وفيها آبار كثيرة". وهذا يدل على أهميتها المبكرة في حياة العرب.

الفصل الأول: البحرة في العصر الجاهلي

أولا: الأحداث السياسية

شهدت البحرة في العصر الجاهلي العديد من الأحداث المهمة التي أثرت في تاريخ المنطقة بأكملها. وكان أول ذكر لها في المصادر التاريخية يعود إلى القرن الثالث الميلادي، حين نزل بها الملك النعمان بن امرئ القيس اللخمي، ملك الحيرة، في طريقه إلى الحج. وقد اتخذ من البحرة مقرا لصيده ومتنزها له، لما فيها من المياه والمراعي الوفيرة.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي، وقعت في البحرة واحدة من أشهر المعارك بين قبائل العرب، وهي معركة ذي قار الثانية. فقد نزل الملك النعمان بن المنذر اللخمي بالبحرة في طريقه إلى غزو بني شيبان، فاستغل بنو شيبان الفرصة وهاجموه وهو في معسكره. وقد أسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة للجيش اللخمي، وأسر عدد كبير من أشراف القبائل الذين كانوا في صحبة الملك.

ثانيا: الأهمية الاقتصادية

كانت البحرة تمثل أهمية اقتصادية كبيرة لقبيلة بني أسد، التي كانت تسكن المناطق المجاورة لها. فقد كانت مواشيهم ترعى في مراعيها الخصبة، وكانوا يستقون من آبارها العذبة. كما كانت البحرة نقطة التقاء لقوافل التجارة القادمة من اليمن والشام والعراق، مما جعلها سوقا مهما لتبادل السلع والبضائع.

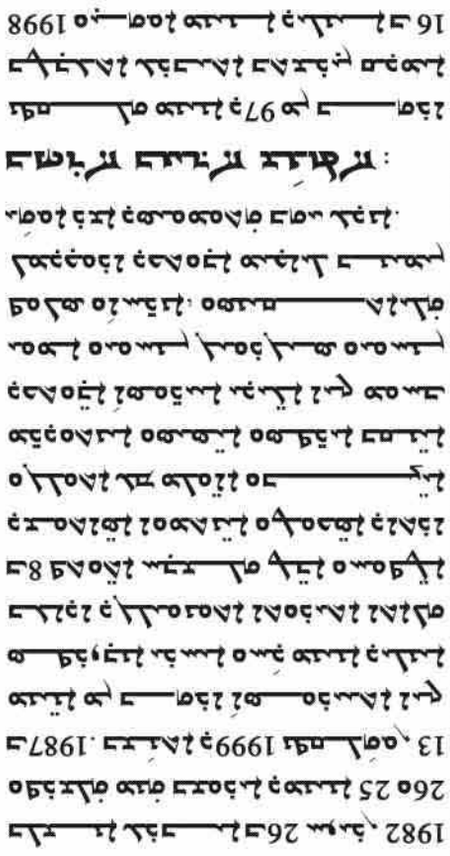

وقد ذكر ابن الكلبي في كتابه "نسب معد واليمن الكبير" أن البحرة كانت من أهم المحطات على طريق القوافل بين الحجاز والشام، وأن أهلها كانوا يفرضون على القوافل المارة بها إتاوة مقابل توفير الحماية والماء لها. وقد بلغت قيمة هذه الإتاوة في بعض السنوات نحو 5000 درهم، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت.

ثالثا: الأهمية العسكرية

لم تكن البحرة مجرد محطة تجارية، بل كانت ذات أهمية عسكرية كبيرة أيضا. فقد كانت تقع على طريق الغزو بين الحيرة ونجد، وكانت جيوش المناذرة تمر بها في طريقها إلى غزو قبائل نجد. كما كانت البحرة نقطة تجمع للجيوش قبل المعارك، حيث كان الملك يعسكر بها ويستعرض جنوده.

وقد ذكر الأصفهاني في كتابه "الأغاني" أن الملك عمرو بن هند اللخمي نزل بالبحرة في طريقه إلى غزو بني تميم، وأنه أمر بحفر آبار جديدة فيها لتزويد جيشه بالماء. وهذا يدل على أهميتها الاستراتيجية في تلك الفترة.

الفصل الثاني: البحرة في صدر الإسلام

أولا: الفتح الإسلامي

مع ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، دخلت البحرة في دين الله أفواجا. وقد ورد أن وفدا من بني أسد قدم على النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، وأعلن إسلامه نيابة عن قومه. وقد أرسل النبي ﷺ معهم كتابا إلى أهل البحرة يدعوهم فيه إلى الإسلام، وقد استجابوا لدعوته بسرعة.

وبعد وفاة النبي ﷺ، ارتدت بعض القبائل المحيطة بالبحرة عن الإسلام، فأرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمي لإعادتها إلى الإسلام. وقد نجح العلاء في مهمته، وأعاد البحرة إلى حظيرة الإسلام بعد معركة قصيرة مع المرتدين. وكان ذلك في سنة 12هـ.

ثانيا: في عهد الخلفاء الراشدين

في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصبحت البحرة جزءا من الدولة الإسلامية، وخضعت لنظام الخراج والعشر. وقد عين عمر عاملا على البحرة لجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها. كما أمر بحفر آبار جديدة فيها لتزويد المسافرين بالماء، وبنى فيها مسجدا للصلاة.

وقد ذكر البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" أن عمر بن الخطاب كتب إلى عامله على البحرة يأمره بالعدل بين الناس وبحسن معاملة أهل البادية، وأن لا يأخذ منهم إلا ما فرضه الله عليهم. وهذا يدل على اهتمام الخليفة بأمر البحرة وأهلها.

ثالثا: في عهد عثمان وعلي

في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ازدهرت البحرة اقتصاديا، وكثرت فيها الزراعة والتجارة. وقد أقطع عثمان بعض الأراضي في البحرة لبعض أصحابه، مما أدى إلى نشوء ملكيات خاصة فيها. كما شهدت البحرة في عهده توافد الحجاج عليها في طريقهم إلى مكة، فازدهرت الخدمات المقدمة لهم.

وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقعت في البحرة أحداث الفتنة الكبرى. فقد نزل بها بعض الخارجين على علي، ومنعوا الناس من الوصول إلى الماء. وقد أرسل علي جيشا لإخراجهم، فاشتبك معهم في معركة قصيرة انتهت بهزيمة الخارجين وعودة الماء إلى أهل البحرة.

الفصل الثالث: البحرة في العصر الأموي

أولا: في عهد معاوية

في عهد معاوية بن أبي سفيان، استمرت البحرة في الازدهار، وأصبحت من أهم المحطات على طريق الحج الشامي. وقد بنى معاوية فيها قصرا ومسجدا، وحفر آبارا جديدة لتزويد الحجاج بالماء. كما عين عاملا على البحرة لجباية الخراج والعشر، وإرسالها إلى بيت المال في دمشق.

وقد ذكر ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق" أن معاوية كان يمر بالبحرة في طريقه إلى الحج، وأنه كان يقيم فيها أياما للراحة والاستجمام. وهذا يدل على مكانتها المرموقة في نظر الخلفاء الأمويين.

ثانيا: في عهد يزيد وما بعده

في عهد يزيد بن معاوية، شهدت البحرة بعض الاضطرابات بسبب الصراع على الخلافة. فقد نزل بها بعض أنصار عبد الله بن الزبير، وحاولوا السيطرة على الطريق. لكن الأمويين أرسلوا جيشا لإخراجهم، فانسحبوا دون قتال. وبعد ذلك عادت البحرة إلى الهدوء والاستقرار.

وفي عهد عبد الملك بن مروان، بدأت أهمية البحرة تتراجع تدريجيا. فقد أنشأ عبد الملك طريقا جديدا للحج يمر بالقرعاء بدلا من البحرة، فقل عدد الحجاج الذين يمرون بها. كما أن تطور وسائل النقل وظهور السفن البحرية قلل من أهمية الطرق البرية، ومنها طريق البحرة.

الخاتمة: النتائج والتوصيات

من خلال دراستنا لتاريخ البحرة، يمكننا أن نستخلص عدة نتائج مهمة، أبرزها:

1. أن البحرة كانت منطقة استراتيجية مهمة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، بسبب موقعها على طريق القوافل والحج.
2. أن أهلها لعبوا دورا مهما في الأحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في المنطقة، وخاصة في معركة ذي قار الثانية.
3. أن البحرة كانت مركزا اقتصاديا مهما، بسبب خصوبة أراضيها ووفرة مياهها، وموقعها على طرق التجارة.
4. أن أهمية البحرة بدأت في التراجع منذ العصر الأموي، بسبب تغير طرق الحج وتطور وسائل النقل.

وأوصي في ختام هذه الدراسة بضرورة الاهتمام بدراسة تاريخ المناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية، لما في ذلك من أهمية في فهم تاريخ الإسلام والعرب. كما أوصي بالاعتماد على المصادر الأصلية في الدراسات التاريخية، وعدم الاكتفاء بالمراجع الحديثة التي قد تحتوي على أخطاء أو تحريفات.

مشروع كتاب
تاريخ عمرية البحرة (50 -13)هـ

د. عمر عبدالله بدران
Badran_Omaria@yahoo.com

تحت الطبع...

تاريخ عمرية البحرة

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع